« هانس كوكلر » متخصص في فلسفة القانون والسياسة، ظل « متسلحا » ومتشبعا بالفلسفة الهيديغيرية، التي ألف فيها الكثير ودَرَّسَهَا لسنوات عديدة بجامعة إنسبروك النمساوية، حيث يشتغل. وهي التي فتحت له آفاقا شاسعة لتجاوز « المركزية الأوروبية »، آفاقا قائمة على معانقة فلسفة « إنسية » منفتحة على ثقافات وحضارات مختلفة، ومؤمنة بمبدأ حق جميع الشعوب في العيش الكريم والمساواة أمام القانون الدولي في الحقوق والواجبات.

الفيلسوف النمساوي يخص «أخبار اليوم» بحوار مقتضب بعد وصوله إلى المغرب

«كوكلر»: تركيبة مجلس الأمن تكشف أن القوة فوق القانون

■حوار- محمد جليد ■

□ في كتابكم «الشك ونقد المجتمع في فكر مارتين هيدغر» الصادر مؤخرا عن دار النشر اللبنانية «جداول»، يكتشف القارئ العربي البعد السياسي في فكر هذا الفيلسوف. ماذا انتقد «هيدغر» في السياسة الغربية؟

● **لم يكن نقد «هيدغر» للسياسة الغربية مباشرا، بل كان مبطنا. وهو نقد ناتج في المقام الأول عن نقده الجوهري «لإرادة القوة» المتضمنة في الحضارة التقنية عموما. إذ كانت السياسة الأحادية ذات التوجه المادي المحض، في نظره، نتيجة اعتبار إرادة القوة هدفا مطلقا ومحاولة الإنسان جعل الحقيقة أو الواقع شيئا ماديا. وما نعيه كهيمنة سياسية هي في الواقع من المنظور الهيدغيري إلا الجانب الأقصى لإرادة القوة هذه. إن الاهتمام المبالغ فيه للإنسان الغربي بمحاولة مراقبة كل شيء هو ما قاد «هيدغر» إلى رفض تطويع الطبيعة وفق رغبات هذا الإنسان واحتياجاته، ذلك أن هذا الاهتمام هو تعبير صارخ على ما سماه بـ«نسيان الكينونة»، أي كبت إشكالية أصل الكينونة ويعتبر هذا في نظره الشكل الظاهري لتغريب الإنسان.**

□ في كتابكم الشهير «العدالة الجنائية الدولية في مفترق الطرق: عدالة عالمية أم انتقام شامل؟» تدافعون عن أهمية استلهام فلسفة القانون بغية تثبيت السلم بين البشر، لكنكم بالمقابل تفضحون الطريقة التي تَستغل بها القوى السياسية العالمية قانون العقوبات الدولية لصالحها. كيف ذلك؟

● **إن السلطة السياسية للقوى العظمى مناقضة تماما لمبدإ المساواة والتعاون السلمي بين الدول كما نجدهما في منظومة الأمم المتحدة. تكمن المشكلة الأساسية، إذن، في كون هذه المنظومة الأممية هي نتيجة فرضتها الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية. وبما أن الدول الخمس، الأعضاء الدائمون في هذه المنظمة، يتمتعون بحق الفيتو، فإنه من السهل بمكان أن يستغلوا منظمة الأمم المتحدة بما يخدم مصالحهم. وإذا استحضرنا البند الأممي الذي يقر للأعضاء الدائمين التصويت في الصراعات التي يكونون طرفا فيها ويحرم الأعضاء غير الدائمين من ذلك، فإن الأشياء تتضح بما فيه الكفاية، بأن القوة تكون فوق القانون. وبهذا يمكن القول بأن القانون الخاص بالدول الخمس الدائمي العضوية في الأمم المتحدة يتناقض مع مبدإ المساواة في هذه المنظمة. لا يد أن نعي كذلك بأن هذه الدول تمثل قوتها ومصالحها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ولهذا السبب فإنها غير مستعدة لاقتسام هذه السلطة إلى يومنا هذا مع دول أخرى. فلا الدول العربية ولا الدول الإفريقية ونظيرتها في أمريكا اللاتينية ممثلة كدول دائمة العضوية.**

يقول حميد لشهب في تقديمه لترجمة كتابكم: «تشنج العلاقة بين المسلمين والغرب: الأسباب والحلول»، إنه «لم يعرف التاريخ الطويل للعلاقة بين الغرب والعالم العربي والإسلامي مفكرا غربيا التزم في فكره وسلوكه بالدفاع اللامحدود عن القضايا العربية مثل الفيلسوف النمساوي هانس كوكلر... وحكوماتنا العربية والمسلمة مطالبة اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، بالتفكير الجدي والمبرمج في نقل أعمال هؤلاء المفكرين إلى العربية باعتبارها رسالة ومسؤولية حضارية وثقافية...».

□ ما هو موقفكم من مثل هذا النداء؟

● **أعتبر مثل هذا النداء تشريفا بالنسبة إلي وهو مليء بعبارات الاعتبار الإيجابي للعمل والالتزام الفكري للمثقفين الغربيين الذين لم تعمهم الأيديولوجيات الغربية السابحة في مركزيتها.**

□ دفاعك عن الحق والقانون وانتصارك للقضايا العربية عرضك للعديد من الهجومات من طرف مفكرين غربيين معارضين للثقافة العربية الإسلامية. كيف تعاملت مع هذه الحملات التي تعرضت لها؟

● **لم تعد مثل هذه الهجومات كثيرة كما كانت في السابق وقد يكون ذلك راجع إلى أنني لم أتركها تدخل الشك في التزامي الفكري. ما هو مهم في مثل هذا الالتزام، إذا كان ناتجا عن اقتناع عقلي وفكري وإنساني، هو الاستمرار في الدفاع عنه وعدم الرضوخ للضغوطات السياسية، الممارسة من طرف القوى المهيمنة ضد كل من يخالفها في الرأي أو يحاول المس بمصالحها. بالنسبة لالتزامي اتجاه القضايا العربية، حاول المرء على مر السنين إقصائي، لكن إيماني العميق بعدالة القضايا التي أدافع عنها والجهر بالجور والتحيز الغربيين وبالخصوص عامل الاستمرارية في الجهر بهذا الظلم، أظهر لي في السنين الأخيرة بأن كل محاولات الإبعاد وخرص صوتي باءت بالفشل.**

هانس كوكلر

■ محمد جليد■

لحظات ثقافية لا توجد عندنا

لولا مشكلات الاقتصاد الأمريكي، لاعتقد الجمهور، من مختلف أصقاع العالم، أن الذي كان يخاطب الأمريكيين أول أمس، خلال حفل افتتاح ولاية الرئيس الأمريكي الثانية هو الزعيم الأمريكي المغتال «مارتن لوثر كينغ»، وليس «باراك أوباما». لقد استلهم هذا الأخير من الأول طريقته في الخطابة، بل ذهب أبعد من ذلك، عندما اقتبس أسلوبه وعباراته لإقناع الأمريكيين بالتوحد من أجل مواجهة تحديات المستقبل.

ولم تتوقف هذه اللحظات الثقافية عند هذا الحد، بل كان الحفل برمته حدثا ثقافيا بامتياز. فبمجرد أن فرغ «أوباما» من خطابه، حتى أفسحت المنصة أمام أصوات الفنانين والمثقفين، ليقدموا أطباقا راقية من فنون الغناء والشعر، وكذا رجال الدين ليقدموا «بركاتهم» للرئيس الجديد/ القديم.

كانت البداية مع الفنانة «كيلي كلارسون»، التي أدت أغنية في مديح الوطن، ليليها على المنصة الشاعر «رتشارد بلانكو». وكما جرت العادة، اعتلى رجل دين مسيحي المنصة، حيث أعطى «بركته» للرئيس «باراك أوباما»، قبل أن يحل الدور على فنانة أخرى ذات صيت عالمي، هي المغنية الشهيرة «بيونسي»، التي غنت الشعار الوطني الأمريكي. كل هذا والرئيس الأمريكي ينصت بإعجاب إلى كل هذه الأصوات الثقافية والفنية.

نعود إلى ساحتنا السياسية لنجري المقارنة مع أمريكا، ولو أن البعض لا يحبذ هذا الأمر، لأنه نوع المقارنة بين «الحمارة» و«الطيارة». لنأخذ على سبيل المثال حفل تنصيب حكومة بنكيران قبل أكثر من سنة. لم تكن هناك أية علامة تدل على هذا الحضور الثقافي، إلا تلك «الطقوس» التقليدية، التي لازالت دار المخزن مصرة على تطبيقها في القرن الحادي والعشرين، وفي عصر الديمقراطيات والدساتير والقوانين، الخ. ومع ذلك، جفاف ثقافي باميتاز، ولا شيء يستحضر الانتماء إلى الوطن، أكانت أغنية أم شعرا أم نثرا، الخ.

لماذا هذا الجفاف والجفاء في الآن ذاته؟ في زمن «ثقافة الالتزام» و«المثقف العضوي»، كان العداء واضحا بين الفاعل الثقافي والفاعل السياسي الوحيد آنذاك، الذي هو دار المخزن. وقد تواصل هذا العداء بصورة خفية. إلى اليوم، رغم الانفتاح الذي طبع الساحة الثقافية، ورغم أن المثقف اقتنع بضرورة الابتعاد عن القناعة الإيديولوجية والسياسية، ولم يعد، في الغالب الأعم، مثقفا عضويا مثلما كان في الستينيات والسبعينيات.

هذا جزء ضئيل من الإجابة فقط. ثمة عناصر كثيرة خفية لا تنكشف، لأن الفاعل السياسي الرسمي لا يريد ذلك، وإن كانت بعض شذراتها تنفلت من القبضة بين الفينة والأخرى. ومن شأنها أن تساعد على فهم هذا الجفاء. قد يقول قائل إن هذا السياسي لا يريد فاعلا مثقفا إلى جانبه، قد يشوش على «مشروعه» السياسي، مثلما حدث بالفعل قبل سنوات قليلة فقط مع أحد أبرز «مثقفي» السلطة.

في أمريكا، لا يخشى «أوباما» المثقف، بل يستدعيه إلى حفل تنصيبه، وينصت إلى إنتاجه الإبداعي باستمتاع وإعجاب. وعندنا لا يحدث أي شيء من هذا الحضور الثقافي في حفل سياسي محض. لماذا؟ لا أدري من هو أعلم.

عرفات في كتاب

أعاد عضو المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية السفير الفلسطيني السابق في القاهرة نبيل عمرو تقديم الرئيس الفلسطيني الراحل في كتاب جديد حمل اسم «ياسر عرفات وجنون الجغرافيا». إذ سرد عمرو بين سطور هذا الكتاب، الصادر عن مطبعة دار الشروق، والذي يتكون من سبعة فصول في 286 صفحة، تاريخ وحياة عرفات من منظوره، والزاوية التي رأى فيها الزعيم الراحل، بين فصول حياته النضالية الطويلة، وعلاقاته مع أبرز القادة والزعماء، والذين كانوا موجودين دائما حوله. وقد قال عمرو في معرض حديثه عن كتابه قبيل توقيعه «إن جنون الجغرافيا هو أحد فصول الكتاب ومن هنا جاء اسم الكتاب، لأن الجغرافيا تعتبر كلمة السر في حياة الشهيد ياسر عرفات».

كتب كلاسيكية

كرس الناشر محمد رشاد، صاحب الدار المصرية اللبنانية، سلسلة أدبية وفكرية وثقافية جديدة تحمل اسم «كلاسيكيات» خرج إلى النور منها حتى الآن كتب: «العبرات» و«النظرات» (ثلاثة أجزاء) و«الشاعر والفضيلة أو بول وفرجيني» و«في سبيل التاج» و«ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون» لمصطفى لطفي المنفلوطي (1876 1924م). ورواية «زينب» أول رواية عربية متكاملة فنيا، و«عُثمان بن عفان» و«الصدِّيق أبو بكر» لمحمد حسين هيكل (1888 1956م و«الفاروق عمر» (جزءان) و«حياة محمد» لهيكل، و«حي بن يقظان» لابن طفيل، و«الإلياذة» و«الأوديسة» (لهوميروس)، و«في منزل الوحي»، و«حياتي» لأحمد أمين، فضلا عن أعمال أخرى. وستصدر بقية الكتب التي شكلت وجدان المصريين تباعا، وهي بشكلها الجديد لاتزال قادرة على إثارة الدهشة، والقيام بالدور نفسه لدى الأجيال الجديدة.

شمدص جهجاه

أصدر الباحث اللبناني «جان داية» الكتاب الرابع والعشرين للأديب الراحل سعيد تقي الدين بعنوان «شمدص جهجاه»، مشيرا إلى أن المواد المتوفرة لديه من نتاج الأديب الساخر ستصل بالعدد إلى 31 كتابا. الكتاب الجديد حمل عنوانا لم يختره له مؤلفه بل ناشره الذي أعطاه الاسم الأشهر بين شخصيات اخترعها المسرحي والقصصي والكاتب اللبناني الشهير وهو اسم «شمدص جهجاه». وقد أوضح «جان داية» على غلاف الكتاب بعض الأمور التي تعود إلى شخصية شمدص جهجاه. تحدث عن اغتراب سعيد تقي الدين في الفلبين سنوات طويلة ثم عن عودته إلى لبنان والى مسقط رأسه بلدة بعقلين. إذ قال إنه «قبيل عودته من مغتربه الفلبيني صب سعيد تقي الدين عبر مجلة «تايم» الأمريكية جام سخريته على محررها الذي اتهم فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة خليل الخوري بالجنون.» لكن بعد رجوع سعيد تقي إلى لبنان، وجد أن الأمور مختلفة عما كان تصوره عن بعد. وأضاف الناشر يقول «ولكن بعد رجوعه إلى بعقلين، أطلق على أول رئيس جمهورية في العهود الاستقلالية اسم شمدص جهجاه».

جديد دراسات مناهج البحث التاريخي المعاصر

الطوبونيميا.. استنطاق ذاكرة المكان

■ أسامة الزكاري ■

يشهد مجال البحث التاريخي المعاصر تطورات هائلة على مستوى قواعده المنهجية وعلى مستوى موقعه بين العلوم الأخرى، وعلى مستوى أدواته الإجرائية في البحث وفي التجميع وفي التحليل وفي التركيب. وإذا كانت «المدرسة التاريخية الوطنية» المغربية الراهنة قد استطاعت اكتساب قصب السبق في مجال امتلاك الجرأة على تجديد القراءات وتطوير حقل المظان المصدرية وتوسيع مفهوم الوثيقة التاريخية، فإن ذلك لم يكن من الممكن تحقيقه لولا نزوع الدرس التاريخي الجامعي الوطني نحو الانفتاح على المكتسبات المنهجية الهائلة التي حققها مجال الكتابة التاريخية المعاصرة على الصعيد العالمي.

ويمكن القول إن مؤرخي المغرب المعاصر قد استطاعوا تبوأ مركز الريادة داخل المحيط العربي بفضل منحاهم التجديدي الذي أضحى يؤسس لقواعد مرجعية وثابتة في مقاربة قضايا «الذاكرة التاريخية»، في عمقها الإنساني المركب، وفي آليات تداولها أكاديميا، وفق رؤى تخلص في الوفاء للمنطلقات العلمية الأصيلة ولا لشيء غير ذلك. فكانت النتيجة، بروز أسماء كبرى استطاعت أن تتحول إلى سلط علمية ومعرفية في مجال تطوير صنعة كتابة التاريخ على مستوى كل العالم العربي، واكتست صيتا عالميا لا شك وأنه يؤسس لمعالم «مدرسة علمية» قائمة الذات ومتماسكة الأوصال.. مدرسة اكتست قوتها العلمية من صرامتها المنهاجية مع منطق التنقيب الدقيق، ومن مجابهتها لكل التوجهات النزوعية والوظيفية للكتابة التاريخية الموجهة، من داخل المغرب ومن خارجه. من بين هذه الأسماء التي رسخت عطاءها داخل ساحة تلقي درس التاريخ الأكاديمي، أكتفي بالاستشهاد- على سبيل المثال لا الحصر- بأعمال كل من عبد الله العروي والراحل جرمان عياش والمرحوم محمد المنوني والمرحوم محمد حجي والمرحوم محمد زنيبر ومحمد كنبيب وإبراهيم بوطالب وعبد الأحد السبتي ومحمد القبلي وأحمد التوفيق والمرحوم عبد العزيز خلوق التمسماني ومحمد بن عزوز حكيم.

ولعل من مظاهر قوة إشعاع هذا التوجه، تواتر صدور الإصدارات العلمية المتخصصة، ومواكبتها المستمرة لآخر الاجتهادات ذات الصلة على الصعيد العالمي، وبلغاتها المختلفة. ومن بين آخر الإصدارات التي نزلت إلى المكتبات عند مطلع السنة الجارية (2012)، نذكر كتاب «الطوبونيميا بالغرب الإسلامي- أو ضبط الأعلام الجغرافية» مع عنوان فرعي «مقدمات في الفهم والمنهج والعلائق»، وهو كتاب جماعي، ساهمت في إنجازه ثلة من باحثي المغرب المعاصر، ممن يحملون لواء تجديد مضامين «الدرس التاريخي الجامعي الوطني»، باحثين عن تقويم سقطات الإسطوغرافيات الكلاسيكية، ومجتهدين للتأصيل لشروط توظيف مكتسبات العلوم الحديثة، الإنسانية والحقة، وإدراجها ضمن نسق اشتغال أدوات مؤرخ اليوم. وقد اختار أصحاب الكتاب، تخصيص الاشتغال على قضايا الطوبونيميا التاريخية، بالنظر إلى قيمتها المطلقة في إعادة استيعاب إبدالات رموز المكان ومجمل الرصيد اللساني الذي يتم توظيفه لتأثيث مكونات الفضاء العام الذي نحيا معه/ وبه.

باختصار، هي فرع علمي يستنطق أسماء الشواهد الجغرافية، ويدقق في أصولها، ويتتبع امتداداتها، ويرصد تطوراتها اللسانية والتداولية، في سياق التطورات التاريخية الطويلة المدى للدولة والمجتمع. ولقد لخصت الكلمة التقديمية التي وضعها محمد البركة السقف العام الذي انتظمت في إطاره مضامين الكتاب، عندما قالت: «من الواضح أن الطوبونيميا لا تستمد قوتها من الدراسات اللسانية فحسب، بل تستمدها من البحث التاريخي والتحري الأركيولوجي كذلك، فإذا كانت الطوبونيميا حسب البعض أداة لسانية تنير بعض الجوانب المعتمة من النصوص المصدرية التي هي أساس الأبحاث التاريخية والأثرية، فإنها كذلك أداة تاريخية وأثرية تفيد البحث اللساني في تحديد مضامين أسماء الأماكن، ورسم مبيان التطور الذي لحق اللسان المتحدث به، وتحديد صيغ كتابتها ونقلها... وبما أن اختيار أسماء الأماكن ليس فعلا فجائيا أو اعتباطيا، بل فعل يستمد أصله من معالم وأعلام وأشكال وأحداث... أثرت في ذاكرة المكان، فأصبحت مظهرا من مظاهر بنيته المرجعية، فإنه كذلك اختيار لا إرادي يخفي قصدا غير معلن أو مرجعية غير معلنة تمثل ذاكرة الجماعة، لذلك فإن ضبط هذه الأسماء بتلك الحمولة المرجعية يلزمه أن يستعين بمناهج دقيقة وأدوات لصيقة، تبين حدود التقاطع بين الإرادي واللاإرادي في اختيار هذه الأسماء...» (ص. 5). وبهذه الاستجابة لأفق هذا السقف العلمي في النبش وفي التحليل، احتوى الكتاب على ثلاثة فصول مركزية إلى جانب مجموعة من المحاور الفرعية، سعت إلى مقاربة الموضوع وفق رؤى علمية وتجديدية استطاعت أن تؤصل لمنطلقات الاشتغال بقضايا الطوبونيميا، أو ذاكرة المكان، عبر رصد مختلف الرموز والتمثلات والتراكمات المكونة لتعدد مظاهر الوعي بالمكان، داخل بيئته المغربية الأصيلة التي أفرزتها تلاقحات عقود التاريخ الوسيط ببلاد الغرب الإسلامي. ففي الفصل الأول والمعنون بـ«الطوبونيميا بالغرب الإسلامي: مقدمات في الفهم»، نجد دراسة لمحمد البركة حول المنطلقات المعرفية والمنهجية لضبط قضايا الطوبونيميا بالغرب الإسلامي، وذلك على مستوى المفهوم والاصطلاح والبنية المرجعية لطوبونيميا الغرب الإسلامي وخصائصها المميزة. وفي الفصل الثاني المعنون بـ«الطوبونيميا بالغرب الإسلامي: عناصر في المنهج»، سعى كل من علي المالك ناصري ورضوان غزال إلى تفكيك العناصر الإجرائية الضرورية للتأصيل العلمي للبحث الطوبونيمي بالغرب الإسلامي. أما في الفصل الثالث المعنون بـ«الطوبونيميا بالغرب الإسلامي: التاريخ والأركيولوجيا»، فنجد تنقيبا دقيقا لسعيد بنحمادة حول ملامح الطوبونيميا المائية بالمغرب والأندلس من خلال المصادر الدفينة، إلى جانب دراسة لعبد اللطيف الخمار رصدت جوانبا من التراث المادي للغرب الإسلامي من خلال الدلائل الطوبونيمية والمعطيات الأركيولوجية.

ويمكن القول إن هذا العمل الجماعي الرصين الموزع بين ما مجموعه 132 صفحة من الحجم المتوسط، قد استطاع وضع أرضية أكاديمية رفيعة لتأطير جهود البحث العلمي المتخصص في تفكيك الرموز والدلالات، المادية والمجردة، التي يحفل بها فضاؤنا الجماعي، بشكل يسمح بتطوير مناهج البحث التاريخي الوطني المعاصر ويكسبها عناصر مجددة كفيلة بتبديد الكثير من العتمات المتوارثة عن انغلاق متون الكتابات الإسطوغرافية المتوارثة عن القرون الماضية. فالبحث الطوبونيمي- بهذا المنحى- يعتبر رافدا مهما من روافد تجديد المعرفة التاريخية، ويكسبها عناصر القدرة على استنطاق ما ظل منغلقا من بين ثنايا المدونات التقليدية، كما يعيد الإنصات لنبض المخلفات الرمزية واللسانية والثقافية والأنتروبولوجية لمغاربة العهود الماضية. وقبل كل ذلك، فالعمل يعيد ربط عطاء رواد البحث التاريخي الوطني المغربي المعاصر، بنتائج الطفرات الهائلة التي عرفتها الكتابة التاريخية المتخصصة على المستوى العالمي، في أبعادها المعرفية والمنهجية والمفاهيمية والإجرائية المتداخلة.

«سالفادور دالي»: المهنة مجنون بالفن

■ محمد بن امحمد العلوي ■

ولد الفنان ذائع الصيت سلفادور دالي المولود بيغويراس- كاتالونيا في الحدود بين إسبانيا وفرنسا سنة 1904. هذا الاسم أطلقه عليه والده ليذكره بولد له مات قبل ولادة الرسام دالي بثلاث سنوات. هذه الحالة خلفت عنده صدمة وإحساسا باللانتماء، وشكلت لديه عقدة تحدي الموت وإثبات وجوده الشخصي والفني، مما جعله يتميز بتطرفه الفني والسلوكي أنظر ما قاله في هذا المقطع: «لقد كنت في نظر والدي نصف شخص أو بديل، وكانت روحي تعتصر ألما وغضبا من جراء النظرات الحادة التي كانت تثقبني دون توقف بحثا عن الآخر الذي كان قد غاب عن الوجود». إنها بدايات الاضطراب والاغتراب عند هذا السريالي الذي وهب نفسه لفنه وعشقه الأبدي حيث أبدى تصرفات غريبة وشاذة كان يجد فيها متعته وترجمة حرة وبليغة لما يعتمل بداخله فيؤسس لمذهبه الفني المتمرد.

في السابعة من عمره أبدع أولى لوحاته التي كانت وراء سلوكه طريق التخصص في مجال الرسم بدخوله كلية الفنون الجميلة في «سان فيرناندو» بالعاصمة مدريد ليطرد منها بعدما احتج على تعيين أحد الأساتذة وينسف بتصرفه طموح أبيه أن يراه يوما ما مدرسا. موهبته الكبرى تظهر في نشره قصائد شعرية وسيناريوهات أفلام، فالشاعر غارسيا لوركا والسينمائي لويس بونويل سيطبعان حياة دالي بشكل مثير وموتهما سيزيد من تعميق تأثره النفسي وسيزيد من حدته انفجار القنبلة الذرية أثناء وجوده بالولايات المتحدة الأمريكية أدى به إلى التحلل من واقع الحياة الواعية، والبحث عن واقع آخر هو واقع اللاوعي أو اللاشعور المكبوت من خلال ما تركته تجاربه وحياته من آثار في نفسه التي أبان عنها في الرسم والتشكيل والمعرفة العميقة بالأعمال الفنية وتاريخ الفن كل هذا جعل منه الفنان المبدع الثوري والمتشبث بسرياليته الذي سيعرفه به العالم في ما بعد.

تعتبر الأفكار والتصرفات والسلوكات التي ميزت حياته الفنية أثناء إقامته في الولايات المتحدة الأمريكية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، هي التي جعلته يحتل مركزا مرموقا في الصحافة واسمه معروفا لدى الملايين من الأمريكيين، وبرع بشكل جيد بمزجه صور عالمه الداخلي الخيالي بما توصل له العلم في عصره من اكتشافات واختراعات. تجد بعضا ممن رأوا لوحاته يَسمُونَه بالجنون ولم يكن يبالي بوصفهم ذاك، بل دأب عَلَى وشم التاريخ الفني بلقطات ورسومات صادمة ومثيرة للتساؤلات والدهشة حتى إنه لا يدعي أنه لم يصل إلى الكمال، بل بحثه الدائم تعبير على عدم خوفه من الكمال رغم بعده عنه. حاول الدخول إلى ميدان تصميم المجوهرات وألف أكثر من ثلاثين كتابا وصمم أزياء لعدة دور أزياء مشهورة وشارك في مؤتمرات ثقافية عديدة شملت مدنا أمريكية وأوروبية؛ لقد كان دائب الحركة، ثم قام بدراسة فنون عصر النهضة والهندسة والرياضيات وعلوم التشريح لينتج عنه لوحته «ليدبا» و«العشاء السري»، ويعتبر الرقم 12 السحري هو ملهمه في رسم اللوحتان المحفوظتان الآن في المتحف الوطني للفنون بواشنطن إنه رمز التكامل والتركيب ونشأة الكون والإيمان.

الأشياء المنطقية تصبح عند سلفادور دالي لها معنى آخر وعالم بذاته، تمرد شامل ضد المجتمع المرسَى على قواعد النظام والعقل والتقاليد، ويضع الحلم في الموقع الأول ومعه الشهوات وإملاء اللاوعي في تلك الرسوم واللوحات من خلالها يتم البحث عن الخارق والأخذ بالجانب المسحور فيها. ويعتبر دالي إحدى علامات الفن السريالي وفي الوقت نفسه ممهد لوسائل جديدة للتعبير واستخدام اللغة الفنية وقد أظهر في لوحاته ميولا إلى الفن القديم، وخاصة تأثره بعمالقة عصر النهضة، حيث بدأ أسلوبه الفني يتأثر برسام عصر النهضة رافائيل منذ العام1921 وقد أكد قبل وفاته أنه قد يُعْتَبَرُ «في يوم من الأيام رافائيل القرن العشرين».

سلفادور دالي الفنان الفقير الشاب الذي فاجأ غالا دياكونوفا عام 1929 في إسبانيا وهو في سن الخامسة والعشرين والتي كانت تكبره بعشر سنوات، رأت فيه عبقري شبه مجنون فتركت من أجله شاعرها «بول إيلوار» المحبوب وابنته التي قامت على تربيتها جدتها من والدها، آمنت بعبقريته وتعاملت مع جنونه وهستيريته، فقررت أن تبقى معه حتى موتها؛ وفي كتاب المذكرات الذي أطلق عليه «الحياة السرية لسلفادور دالي» قال في حقها: «أنا بدون غالا لست سلفادور دالي بدونها أصبح مجرد رجل آخر» ويقول في حيز آخر: «كل رسام جيد يريد أن يكوّن مبدعا وينجز لوحات رائعة، عليه أولاً أن يتزوج زوجتي» إنه التأثير الإيجابي الذي خلفته غالا في حياته وفنه، ويمكن ملاحظة ملامح غالا حتى في لوحته «العشاء السري»؛ وقد منحته الحكومة الإسبانية أرفع الأوسمة الإسبانية تقديرا لجهوده من أجل إسبانيا وتثمينا لأعماله الفنية، وفي العام 1982 سيحصل على لقب مركيز دي بوبول وفي السنة نفسها توفيت زوجته.

فن سالفادور دالي رفع الحواجز بين الحلم والواقع والإحالة إلى قدرات الإنسان اللاعقلانية، ولوحاته يعيد من خلالها اكتشاف عوالم جديدة. فالأشياء المنطقية تصبح عنده لها معنى آخر وعالم بذاته وتمرد شامل ضد المجتمع المرسى على قواعد النظام والعقل والتقاليد. نزواته وعربدته الفنية وشهواته شكلت عنده معينا يغرف بواسطتها من اللاوعي فيصبها في تلك الرسوم واللوحات التي من خلالها يتم بحثه عن الخارق والأخاذ والجانب المسحور في الأشياء والأشخاص. ولا يخفى أن سيغموند فرويد رائد مدرسة التحليل النفسي والذي كان معبود السرياليين قد أعلن بعد لقاء له مع سلفادور دالي قائلا: «لازال أميل إلى اعتبار السرياليين مجانين مائة في المائة».

دائما ما كان دائب البحث عن الكمال فتحدى الموت بالحياة التي عاشها بغريزة كبيرة واستمر في محاورته للكون بمفردات متعددة واكتشافات فنية غاية في الغرابة، لقد حاور بفنه السريالي المصابين بالاضطرابات العصبية بعد الحروب ونفذ سلفادور بعض الأعمال الأدبية وساهم في تحرير مجلتي (دفاتر الفن، مينوتور) واستوحى موضوع مقالاته من مختلف المصادر وكتب فيما بعد مجموعة قصصه (وجوه مستترة) وأنجز رسوما لكتب وكتاب منها «خمسون سرا في فن السحر» و«الكوميديا الإلهية» لدانتي. وفي سنة 1954 نشر كتاب (شارب دالي) بالتعاون مع فيليب هايسمان وكتاب (دالي يتحدث عن الفن الحديث) إنه العبقري الذي عمل مصمما للمجوهرات ومصمما في ديزني ومثل في الأوبرا.

الاستثناء الذي خلقه سالفادور دالي في الفن والحياة في القرن العشرين يؤكد العمق الحقيقي للكون والنفس البشرية والإمكانات الكبيرة التي لم تستكشف بعد. ويعترف في كتابه-الاعترافات السرية لسلفا دور دالي- بقوله: «أعرف أن الحياة ما هي إلا مملكة للنقص، لكني سأجعل من التتابع الطويل واللانهائي للأيام التي تشمل حياتي كمالا فانتا، يحمل نقطة تماسه مع الله» نجده قد أعطى لحياته معنى البقاء الأبدي عبر تخليده بأعمال صادمة ومستفزة وغريبة في تشكيلاتها، إذن لم يمت الطفل الذي يسكن بداخله ولم تأكله الشيخوخة. في العام 1989 توفي الفنان السوريالي سلفادور دالي عن عمر ناهز 84 عاما، مات وأوصاف عديدة ملتصقة به كمجموعة نياشين عمل من أجلها طيلة حياته الصاخبة. فهو العبقري والمجنون نتيجة الأفكار والتصرفات والسلوكات التي ميزت حياته الفنية والنظرية، وخاصة أثناء إقامته في الولايات المتحدة الأمريكية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، حيث كانت صرعاته الإعلانية تحتل مركزا مرموقا في الصحافة مما جعل اسمه معروفا لدى الملايين من الأمريكيين وكان دائما يقول «الفرق بيني وبين المجنون هو أني لست مجنونا».